تربية المرأة

المرأة وما أدارك ما المرأة . انسان مثل الرجل . لاتختلف عنه في الاعضاء ووظائفها ولا فى الاحساس ولا فى الفكر ولا فى كل ماتقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان اللهم الا بقدر ما يستدعيه اختلافهما فى الصنف

فاذا فاق الرجل المرأة في القوة البدنية والعقلية فذلك انما لانه اشتغل بالعمل والفكر اجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف فى الشدة والضعف على حسب الاوقات والاماكن

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون ان تربية المرأة وتعليمها غير واجبين . بل انهم يتساءلون هل تعليم المرأة القرآءة والكتابة مما يجوز شرعا أو هو محرم بمقتضى الشريعة!

وأتذكر اني أشرت يوماً على أب وقد رأيت معه بنتاً بلغت من العمر تسع سنوات أعجبني جمالها وذكاؤها بأن يعلمها فأجابني « وهل تريد ان تعطيها وظيفة فى الحكومه ؟ » فاعترضت عليه قائلاً : « وهل في مذهبك لايتعلم الا الموظفون ؟ » فأجابني : — « انى أعلمها جميع مايلزم لادارة منزلها ولا أفعل غير ذلك » قال هذا على وجه يشعر انه لايحب المناقشة في رأيه . ويعني هذا الاب العنيد بادارة المنزل ان بنته تعرف شيئاً من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما أشبه ذلك من المعارف التي انكر انها مفيدة بل لازمة لكل امرأة . ولكنى أقول ولا أخشى نكيراً انه مخطئ في توهمه ان المرأة التي لايكون لها من البضاعة الاّ هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها الى ادارة منزلها

فى رأيي ان المرأة لايمكنها ان تدير منزلها الاّ بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والادبية . فيجب ان تتعلم كل ماينبغي ان يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائى على الاقل حتى يكون لها الملم بمبادئ العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها واتقانه بالاشتغال به متى شاءت

فاذا تعلمت المرأة القرآءة والكتابة واطلعت على أصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد واجالت النظر في تاريخ الامم ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وكانت حياة ذلك كله في نفسها عرفانها العقائد والآداب الدينية استعد عقلها لقبول الآراء السليمة وطرح الخرفات والاباطيل التى تفتك الآن بعقول النساء ×

وعلى من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التي تكمل بها النفس الانسانية في ذاتها. والفضائل التي لها اثر في معاملة الاهل وحفظ نظام القرابة. والفضائل التى يظهر اثرها في نظام الامة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة في نفسها: ولا يتم له ذلك الا بالارشاد القولى والقدوة الصالحة

هذه هي التربية التي اتمنى ان تحمل عليها المرأة المصرية ذكرتها بالاجمال وهي مفصله في المؤلفات المخصصة لها في كل اللغات . ولا اظن ان المرأة بدون هذه التربية يمكنها ان تقوم بوظيفتها في الهيئة الاجتماعية وفي العائلة :

١

أما بالنسبة للوظيفة الاجتماعية

فلأن النساء في كل بلد يقدرون بنصف سكانه على الاقل فبقاؤهن في الجهل حرمان من الانتفاع باعمال نصف عدد الامة وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من ان تشتغل مثل الغربية بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة الا جهلها واهمال تربيتها . ولو أخذ بيدها الى مجتمع الاحياء ووجهت عزيمتها الى مجاراتهم في الاعمال الحيوية واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفساً حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك لا كما هي اليوم عالة لا تعيش الا بعمل غيرها . ولكان ذلك خيراً لوطنها لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه

وانما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم فيدعه في الصندوق ويكتفي بان يفتح صندوقه كل يوم ليتمتع برؤية الذهب ولو عرف لاستعمله وانتفع منه وضاعفه في سنين قليلة

من عوامل الضعف في كل مجتمع انساني ان يكون العدد العظيم من افراده كلا عليه لا عمل له فيما يحتاج اليه وان عمل كان كالآلة الصماء او الدابة العجماء لا يدري ما يصدر منه

المرأة محتاجة الى التعليم لتكون انساناً يعقل ويريد . بلغ من أمر المرأة عندنا أننا اذا تصورناها وجدنا من لوازم تصورها ان يكون لها ولي يقوم بحاجاتها ويدير شؤونها كأن وجود هذا الولي أمر مضمون في جميع الاحوال مع أن الوقائع اظهرت لنا ان كثيراً من النساء لا يجدن من الرجال من يعولهن . فالبنت التي فقدت اقرباءها ولم تتزوج والمرأة المطلقة والارملة التي توفي زوجها والوالدة التي ليس لها اولاد ذكور اولها اولاد قصر — كل هذه المذكورات يحتجن الي التعليم ليمكنهن القيام بما يسد حاجتهن وحاجات اولادهن ان كان لهن اولاد . أما تجردهن عن العلم فيلجؤهن الى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للآداب أو الى التطفل على بعض العائلات الكريمة

ويمكن أن يقال اننا لو بحثنا عن السبب الذي قد يحمل تلك المرأة المسكينة التي تبذل نفسها في ظلام الليل لأول طالب — وما اكبر هذه المذلة علي المرأة — لوجدناه في الاغلب شدة

الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة. وقلما كان الباعث على ذلك الميل الي تحصيل اللذة

ثم انه لا يكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللاتى وقعن فى العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه . ويمكننا ان نعد هذا من الاسباب المانعة للعائلات من السير على قواعد الاقتصاد

لهذا السبب وغيره نرى الاختلال الجسيم في مالية العائلات فان الرجل المصري الذي يشتغل لكسب عيشه وعيش أولاده يرى شطراً من المال الذي يجمعه ينفق على أشخاص من أقاربه أو معارفه أو ممن لا علاقة له بهم ولكن تلزمه الرأفة الانسانية بان يبذل لهم من كسبه مايستطيع كيلا يموتوا جوعاً . وهم يرون أنه انما يفعل مايجب عليه ومع ذلك هم قادرون على الكسب ولكن يحول بينهم وبينه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة وذلك بسبب ماحرموا من التربية

ولو فرض أن المرأة لا تخلو من زوج أو ولي ينفق عليها أفلا تكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل ان كان فقيراً أو تخفيف شيء من اثقال ادارة المال داخل البيت ان كان غنياً.

فان كانت المرأة غنية بنفسها — وهو نادر — بأن كان لها ايراد من عقارات ونحوها أفلا يفيدها التعليم في تدبير ثروتها وادارة شؤونها ؟

نرى النساء كل يوم في اضطرار الى تسليم أموالهن الى قريب أو أجنبي . ونرى وكلاءهن يشتغلون بشؤون أنفسهم اكثر مما يشتغلون بشؤون موكلاتهم فلا يمضى زمن قليل الا وقد اغتنى الوكيل وافتقر الاصيل

نرى النساء يضعن أختامهن على حساب أو مستند أو عقد يجهلن موضوعه أو قيمته وأهميته لعدم ادراكهن كل مايحتوى عليه أو عدم كفاءتهن لفهم ما أودعه فتجرد الواحدة منهن عن حقوقها الثابتة بتزوير أو غش أو اختلاس يرتكبه زوجها أو أحد أقاربها أو وكيلها . فهل كان يقع ذلك لو كانت المرأة متعلمة ؟

على أن التعليم في حد ذاته هو في كل حال حاجة من حاجات الحياة الانسانية . وهو الآن من الحاجات الاولى في كل مجتمع دخلت فيه المدنية . وأصبح العلم هو الغاية الشريفة التى يسعى اليها كل شخص يريد أن يحصل سعادته

المادية والروحية. ذلك لان العلم هو الوسيلة الوحيدة التى يرتفع بها شأن الانسان من منازل الضعة والانحطاط الى مراقى الكرامة والشرف . ولكل نفس حق طبيعى في تنمية ملكاتها الغريزية الى أقصى حد ترمى اليه باستعدادها

وقد جاءت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما تخاطب الرجال . والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات والفلسفة العالية كل ذلك يستلفت من المرأة مثل ما استلفته من الرجل . فاي نفس شريفة لا تشتاق الى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلباً للحقيقة وللسعادة في الدنيا والآخرة ؟ وأي فرق بين الرجل والمرأة في هذا الشوق ونحن نرى ان الصبيان من الذكور والأُناث يستوون فى الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت ابصارهم من الحوادث ؟ وربما كان الولع بذلك فى الانثى أشد منه فى الذكر

أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة في قفص مقصوصة الجناح مطأطأة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية له أمامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها

وارواح الكون تناجيها وتوحي اليها الآمال والرغائب في فتح كنوز اسرارها ؟

التكاليف الشرعية تدلنا على ان المرأة وهبت من العقل مثل ما وهب الرجل . أيظن رجل لم يعمه الغرض ان الله قد وهبها من العقل ما وهبها عبثاً . وانه اتاها من الحواس وآلات الادراك ما اتاها لاجل ان تهملها ولا تستعملها ؟

يقول المسلمون ان النساء ربات الخدور يعمرن المنازل . وان وظيفتهن تنتهي عند عتبة باب البيت . وهو قول من يعيش في عالم الخيال وضرب بينه وبين الحقيقة بحجاب لا ينفذ بصره الى ما وراءه .

ولو تبصر المسلمون لعلموا ان اعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأهل لكسب ضروريات هذه الحياة بنفسها هو السبب الذي جر ضياع حقوقها . فان الرجل لما كان مسؤولا عن كل شيء استأثر بالحق في التمتع بكل حق ولم يبق للمرأة حظ في نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلا منه على ان يتسلى به

مضت الاجيال عندنا والمرأة خاضعة لحكم القوة مغلوبة

لسلطان الاستبداد من الرجل وهو لم يشأ ان يتخذها الا أمراً صالحاً لخدمته مسيراً بارادته . وأغلق في وجهها أبواب المعيشة والكسب بحيث آل أمرها الى العجز عن تناول وسيلة من وسائل العيش بنفسها ولم يبق أمامها من طرقه الا ان تعيش ببعضها اما زوجة أو مفحشة

ولما لم يبق للعقل ولا للأعمال النافعة قيمة لديها وانما بضاعتها ان تسلي الرجل وتمتعه من اللذة بجسمها بما شاء وجهت جميع قواها الى التفنن في طرق استمالته اليها والاستيلاء على أهوائه وخواطر نفسه

مضت تلك الازمان الطويلة على المرأة ولم يمس عقلها شيء من التربية الصحيحة فضعفت منها القوة العاقلة والمفكرة وانفرد الحس بالتصرف فى ارادتها . فحسها هو المميز عندها بين الخير والشر . وهو الرائد لها في الاختيار بين النفع والضرر . فهي تنفر او تميل . فان احبت اخلصت لا عن عقل . وصدرت منها الاعمال الجميلة في ما تحب ولمن تحب بمحض الهوى لا بأصالة الرأي . وان نفرت ارتكبت أكبر الجرائم غير بصيرة بالعواقب ولا عارفة بالمصائر . فلو كانت

العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها لنمت فيها بذلك قوة الحكم على احساسها ولتصرّفت في اعمالها على مقتضى الحكمة وقواعد الادب

أضلت المرأة عقلها في ظلمات الاجيال الماضية ففقدت رشدها وادركها العجز عن تناول ما تشتهي من الطرق المسنونة فاضطرت الى استعمال الحيلة وأخذت تعامل الرجل — وهو سيدها وولي امرها — كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه . ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس ورآءها منزع . فاصبحت ممثلة ماهرة ومشخصة قادرة تظهر في المظاهر المتضادة والألوان المختلفة في كل حال بحسبها . ذلك لا عن عقل وحكمة وانما هي حيل الثعالبة

ولكن لا لوم عليها وعذرها انها ليست حرة . وانما فقدت الحرية لانها فقدت السلامة في قوة التميز . بل اللوم كل اللوم على الرجال : اريد بهم من سبقنا ممن اهملوا تربية نسآئنا

٢

واما بالنسبة للوظيفة العائلية

فيكفي لكل انسان متفكر ان يتأمل فى حالة عائلته ليتأكد ان استمرار الحال على ما هى عليه الآن صار مما لا يمكن احتماله

اني اكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التى وردت عليَّ بالتجربة وأخذت بمجامع خواطري . ولا أريد أن أذكر شيئاً منها لعلمي انها ما تركت ذهناً حتى طافت به ولا خاطراً حتى وردت عليه . فان مثار هذه الحوادث جميعها هو شيء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضيعها ورفيعها وهو جهل المرأة . فقد تساوت النساء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبة ولا يظهر اختلافهن الا فى الملبس والحلى . بل يمكن ان يقال انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر زاد جهلها . وان آخر طبقة من نساء الامة وهى التي تسكن الارياف هى اكملهن عقلاً بنسبة حالها المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح

مداركهما في مستو واحد لا يزيد احدهما عن الآخر تقريباً مع اننا نرى ان المرأة في الطبقة العالية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة . ذلك لان الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ولم تتبعهم نساؤهم في هذه الحركة بل وقفن في الطريق . وهذا الاختلاف هو اكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معاً

فالرجل المتعلم يحب النظام والتنسيق في منزله وله ذوق مهذب يميل الى الاشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة ويبلغ الاهتمام بها عند بعض الافراد حداً ينتهي الى اهمال الامور المادية . يفهم بكلمة ويدلو يفهم بالاشارة . يسكت في اوقات ويتكلم في اخرى ويضحك في غيرها . له افكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية فيبكي مع الفقير ويحزن مع المظلوم ويفرح بالخير للناس . وفي كل فكرة تتولد في ذهنه واحساس يؤثر على اعصابه يود ان يجد بجانبه انساناً آخر فيشرح له ما يشعر به ويتسامر معه . وهذا ميل طبيعي يجده كل شخص من نفسه . فاذا كانت امرأته جاهلة كتم افراحه واحزانه عنها ولم يلبث ان

يرى نفسه فى عالم وحده وامرأته فى عالم آخر . اذ هي تعتبر ان الرجل ما خلق في هذه الدنيا الا ليشتري لها الاقمشة العالية والجواهر النفيسة وليصرف اوقاته فى ملاعبتها كأنه صورة اكبر من الصور التي كان يشتريها لها والدها في صغرها للتلهو بها

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر الى نفسه احتقارها واعتبرها من الاعدام التي لا أثر لها في شؤونه وهي متى رأته اهمل واغضى ضاق صدرها وظنت انه يظلمها وبكت سوء حظها الذى ساقها الى رجل لا يقدرها قدرها ونبتت البغضاء في قلبها . ومن ثم تبتدىء عيشة لا أظن ان الجحيم أشد نكالا منها . عيشة يرى كل منهما فيها ان صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة

ولا يظن ان هذا يختص بذوي الاخلاق الفاسدة من الرجال والنساء . فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس ولكن العيشة بينهما خصام مستمر ولا ذنب على احدهما بل الذنب على اختلافهما في التربية كما تقدم . ومنتهى هذه الحالة — إن استمر الاقتران بينهما — ان يميت احدهما حقه فى سبيل راحة الآخر او يجر كلاهما قيده الثقيل الى آخر

العمر . ولكن مهما كان حال الزوجين — وهما على ما ذكرنا من الوصف — فلا سبيل الى ارتباطهما برابطة المحبة اذا أخذت بمعناها الخاص : ولا خسران في الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة

جاء فى القصص الدينية المسطورة فى الكتب السماوية ان الله خلق حوآء من ضلع آدم . وفيه على ما اظن رمز لطيف الى أن الرجل والمرأة يكوّنان مجموعا واحدا لا يتم الا باتحادهما ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على ان المرأة والرجل هما شقان لجسم واحد مفتقر بعضه الى بعض ليتم له الكمال بالاجتماع

وهذا الانجذاب الغريزي الذي اوجده الله في كل المخلوقات الحية — حتى فى النباتات التي يشاهد فى بعضها حركة محسوسة بين الذكر والانثى اذا آن وقت التلقيح على طريقة حار في تفسيرها علماء الطبيعة — هو اهم عنصر يدخل فى تركيب الحب . وهو يكفي لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ولا يختلف في الانسان عن الحيوان . اما اصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو أمر لا يزال غامضاً كاصول كل الاشياء تقريباً .

وانما يرجح قسم من العلماء انه سيال يتولد في المراكز العصبية فمتى وجد هـذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعرا بضرورة اقترابهما . فاذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرح . تتكلم عيونهما وتترجم عن الاضطرابات التي تهيج قلوبهما قبل ان ينطق اللسان كأن روحيهما صديقتان افترقتا في عالم قبل هـذا العالم وأخذت كل واحـدة منهما تبحث عن الاخرى حتى اذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التي كانت تنشـدها . وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال واماني اكبر من مجرد التلاقي فتختلطان ويحدث بينهما شبه العهد على ان لا تفترقا . ترى كل واحدة منهما ان لا سعادة لها الا باتصالها بالاخرى

لـكن هذا الانجذاب المادي لا يلبث مدة حتى ياخذ في التلاشي ويتناقص شيئاً فشيئاً . فمهما كانت شدة الرغبة عند اول التـلاقي فهي صائرة الى الزوال في زمن يختلف طوله وقصره باختـلاف الامزجة . وتضمحل تلك الآمال وتتساقط تلك الاماني ويكاد التقاطع يحل محل التواصل لولا ما اختص الله به الانسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال بما يستجلى من بهاء الارواح وسناء العقول . فهو

يضم الى المنظر البديع الجسداني منظراً آخر قد يكون ابدع في اعتباره وهو المنظر الروحاني العقلي . وكثيراً ما يستبدل لذة الحس التي لا بقاء لها بلذة العقل والوجدان التي لا تنتهي اطوارها ولا تفنى مظاهرها . يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر . ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كأنه طبع لها اذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحذق في العمل مع المحافظة على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب وصدق اللسان وطهارة الذمة وعظم الامانة والاخلاص في الولاء ونحو ذلك من الفضائل المعنوية التي ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية . ووجدان اللذة بهذه المعاني عنصر آخر يدخل في تركيب الحب ايضاً — ومن هذين العنصرين يتركب الحب التام

واما ما يروى من ان رجلاً عشق امرأة عشقاً روحانيا محضاً أو ان آخر عشق أخرى للذة المادية ليس الا بدون اعتبار تلك الصفات الادبية فقد يكون لان الاول رجل خيالي والثاني رجل جاهل شهوي . على ان التجارب دلت على ان

هذه الشهوات البترآء ليس لها حظ من البقاء . فهى كالنار ذات اللهب تهب وتنطفى بسرعة

واليك بياناً يزيد وضوحاً في فهم ماتقدم :

اللذة الجسمانية المتحدة في النوع مهما تخالفت في الافراد فهى دائماً واحدة . فان افراد اللذة المتحدة في النوع تتشابه الى أحد تكاد لا تميز الا باختلاف الزمان أو المكان مثلاً فما يحصل منها اولاً هو ما يحصل ثانياً وثالثاً ورابعاً وهكذا

ومن البديهى ان تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة نظر أو لذة سمع أو لذة ذوق أو لذة لمس يفضى في الغالب الى فقد الرغبة فيها فياتي زمن لا تتنبه الاعصاب لها لكثرة تعودها عليها . والامر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية . هذه اللذة في طبيعتها انه يمكن تجددها فى كل آن . تأمل فى مسامرة صديقين تجد انها كنز سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر فيسري عقلهما من موضوع لموضوع وينتقل من الجزئيات الي الكليات ويمر على الآلام والآمال والقبيح والحسن والناقص والكامل . كل عمل او فكر او حادث او اختراع يكسب عقلهما غذاءً جديداً ويفيد

انفسهما لذة جديدة. كل مظهر من مظاهر حياة احدهما العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وادب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ويزيد في رابطة الالفة بينهما عقدة جديدة

ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقي على الانسان وكيف ان العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من أكبر السعادات في هذه الدنيا . فان كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها

فهذا الحب لا يمكن ان يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب في التربية والتعليم . ولا يجب ان يفهم ان الرجل المتعلم اذا لم يحب زوجته فهي يمكنها ان تحبه . فان توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم لان الحب الحقيقي الذي عرفت عنصريه المادي والمعنوي لا يبقى الا بالاحترام . والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه . والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها

سل جمهور المتزوجين هل هم محبوبون من نسائهم يجيبونك نعم . لكن الحقيقة غير ما يظنون — اني بحثت كثيراً في عائلات

مما يقال انها في اتفاق تام فما وجدت الى الآن لا زوجاً يحب امرأته ولا امرأة تحب زوجها . اما هذا الاتفاق الظاهري الذي يشاهد في كثير من العائلات فمعناه انه لا يوجد شقاق بين الزوجين اما لان الزوج تعب وترك واما لان المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما يتصرف المالك في ملكه واما لانهما الاثنان جاهلان لا يدركان قيمة الحياة . وهذا الحال الاخير هو حال أغلب الازواج المصريين . ولا أرى ما يقرب من السعادة الا في هذا النوع الاخير وان كان سعادة سلبية لا قيمة لها

اما في النوعين الاولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال وهو فناء احد الزوجين في سبيل ابقاء الآخر . وغاية ما يمكن ان اسلم به هو انه قد يشاهد في عدد قليل من الازواج شيء يقرب من المودة يظهر في بعض الاحيان ثم يختفي . وهو استثناء يؤيد القاعدة وهي عدم الحب : عدم الحب من طرف الزوج لان امرأته متأخرة عنه في العقل والتربية تأخراً فاحشاً بحيث لا يكاد توجد مسئلة يمكن ان يتحدثا فيها لحظة بسرور متبادل . ولا يكاد يوجد امر يتفقان في الحكم عليه برأي واحد . ولانها

بعيدة عن العواطف والمعاني والاشغال التي يميل اليها ومغمورة في شؤون ليس لها من ميله نصيب . حتى انها فى الامور التي هي من عملها وترى انهـا خلقت لاجلها لا يرى منها زوجها مايروق نظره . فاكثر النساء لم يتعودن على تسريح شعرهن كل يوم . ولا على الاستحمام اكثر من مرة فى الاسبوع ولا يعرفن استعمال السواك . ولا يعتنين بمـا يلى البدن من الملابس مع ان جودتها ونظافتها لها أعظم تأثير في استمالة الرجل ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج وكيف يحافظ عليها وكيف يمكن تنميتها وكيف تكون موافاتها . ذلك لان المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة وتغيب عنها معرفة اسباب الميل والنفور فاذا ارادت أن تستميل الرجل جاءت فى الغالب بعكس ذلك

واما عدم الحب من طرف المرأة فلانها لا تذوق معنى الحب . ولو اردنا ان نحلل احساسها بالنسبـة لزوجها نجـد انه يتركب من امرين ميل اليه من حيث هو رجل ابيح لها أن تقضى معه شهواتها . وشعور بان هـذا الرجل نافع لهـا للقيام بحاجات معيشتها . اما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت كل

منهما الاخرى من بين آلاف من سواهما امتزاجاً تاماً يؤلف منهما موجوداً واحداً كأن كلاً منهما صوت والآخر صداه . ذلك الاخلاص التام الذي ينسى الانسان نفسه ولا يدع له فكراً الا في صاحبه . ذلك الاخلاص الذي لانجد له مثالاً اظهر من حب الوالدة لولدها — فهي بعيدة عنه بعد السماء عن الارض . لان الحب بهذه الدرجة ان لم يكن طبيعياً كحب الام لولدها فهو ثمرة عزيزة لاتطلب الا عند النفوس العالية التي تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار ٨

والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى انه طويل او قصير ابيض او اسود . اما قيمة زوجها العقلية والادبية وسيرته وطهارة ذمته ودقة احساسه ومعارفه واعماله ومقاصده في الوجود وكل ما تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به الى ان يكون محترماً محبوباً ممدوحاً في امته — فهذا لا يصل الى عقلها شيء منه . وان وصل فلا يؤثر على منزلته في نفسها . وعلى هذا يكون اول من يجهل الرجل زوجته . فكيف يظن انها تحبه ؟

نرى نساءنا يمدحن رجالاً لا يقبل رجل شريف ان يمد

لهم يده ليصالحهم ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفاً لنا . ذلك لان المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها . فاحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مال لا يفنى لقضاء ماتشتهيه من الملابس والحلى والحلوى . وابغض الرجال عندها من يقضي اوقاته في الاشتغال في مكتبه . كلما رأته جالساً منحنى الظهر مشغولا بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التي تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التي اكتسبتها على زوجها . ومن هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهي الا بنزاع جديد ولا يدري الزوج المسكين ماذا يصنع اذا اراد ان يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم . أراه في حيرة اشد من الرجل الذي جمع بين زوجتين . فقد رأينا احياناً كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجتين لرجل واحد . وما سمع قط ان امرأة مصرية ممن نعني رضيت بمباشرة العلم

ومن البديهي ان الرجل الذي يكون بهذا حاله ينتهي بفقد كل استعداد للعمل . لان العلم لا يثمر الا اذا كان العقل متمتعاً بالهدو والسكون خالياً عن الاضطراب والتشويش . ولان

الرجل يطلب راحته وهي في يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه

رأينا مما تقدم أن المرأة المصرية لا تجد ذوق الحب خصوصا اذا كان زوجها متعلما يصرف وقته في الاعمال النافعة

قد يقال أن الحب الذي تكلمت عنه هو من كمال السعادة وليس من الامور الضرورية التي لا يستغنى عنها في الزواج . وانه عند فقده يمكن أن يعوض بصفات أخرى عند الزوجة ويكفي أن المرأة تكون رفيقة لزوجها شريكة له في المنافع والمضار ولذلك فهي تساعده على حاجات الحياة ليتم له بعض السعادة — هذا يمكن أن يكون . ولكن كيف الوصول اليه أيضاً مع جهل المرأة ؟

قلت أن المرأة الفلاحة مع جهلها هي زميلة الرجل في كل اعماله وهي قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها . ذلك سهل لان العيشة في الارياف ساذجة بدوية تقريبا وحاجات العائلة قليلة . اما في المدن التي ترقت فيها المعيشة وكثرت الحاجات وتشعبت طرق المنافع وبلغت فيها ادارة المنزل الى درجة ادارة مصلحة من كبار المصالح فالمرأة التي يسلم اليها زمامها لا يمكنها ان تديرها الا بالتعليم والتربية .

والحقيقة ان ادارة المنزل صارت فناً واسعاً يحتاج الى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل في مالية العائلة . وعليها مراقبة الخدم بحيث لا يفلتون لحظة من مراقبتها وبغير هذا يستحيل ان يؤدوا خدمتهم كما ينبغي . وعليها ان تجعل بيتها محبوباً الى زوجها فيجد فيه راحته ومسرته اذا آوى اليه . فتحلو له الاقامة فيه ويلذ له المطعم والمشرب والمنام فلا يطلب المفر منه ليمضي اوقاته عند الجيران أو في المحلات العمومية وعليها — وهو أول الواجبات واهمها — تربية الاولاد جسماً وعقلاً وأدباً

وظاهر ان تطبيق هذه الواجبات التي ذكرتها بالاجمال على العيشة الجارية بالتفصيل يستدعي عقلاً واسعاً ومعلومات متنوعة وذوقاً سليماً : ولا يتأتى وجود ذلك في المرأة الجاهلة وخصوصاً ما يتعلق منها بتربية الاطفال

بالغنا في نسيان ان الاولاد هم صناعة الوالدين وان الامهات لهن النصيب الأوفر في هذه الصناعة . بالغنا في اعتقاد ان الله يخرج الفاسد من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد . وانه

يوزع العقول ويهب الصفات كما يشاء . وهو اعتقاد صحيح اذا أخذ من جهة ان الله قادر على كل شئ ومن متناول قدرته ان يفعل مثل ذلك . فان كان المقصود ان الله يمكنه ان يفعل مثل هذا فلاشك في قدرته سبحانه وتعالى . وليس من ينازع في انه لو شاء فعل ذلك . كما انه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولأنبت الحيوان من الارض . لكن الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاماً وللمخلوقات نواميس تجري عليها احكامها :

« فطرة الله التي فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم » وتاريخ الانسانية من عهد وجودها على الارض الى الآن ايد ثبات هذه السنن واستمرارها

من اكبر مظاهر حكمته جل شأنه هذه الحقيقة التي كشفها لنا العلم وهي ان كل فرد من الانواع الحية — وفيها النوع الانساني — ليس الانسخة مطابقة للاصل المتولد منه . ففيه صورة نوعه الكلي وفيه صورة والديه خصوصاً . بمعنى ان هذا الفرد يحتوي اولا على الخواص المميزة لنوعه وعلى الصفات الخاصة بابويه

ودلت الاكتشافات الحديثة ايضاً على ان كل الملكات العقلية

والادبية في الانسان انما هي مظاهر من وظائف المخ كما ان الصفراء من عمل وظيفة الكبد . وما يسمى عقلا او عاطفة فلا عمل له الا عمل تلك الوظائف وعملها تابع لحالة الاعصاب والمخ . وانما مادة تلك الاعضاء منتزعة من الاصل الذي تولدت منه فلا ريب ان يكون لها تبعية عظمى لذلك الاصل . ثم من الظاهر ان الجسم لا يستغنى فى نموه وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة الاولى بل لابد في النمو والبقاء من التربية والغذاء . فكذلك حال العقل والملكات لا يستغنى بما اودعته المدارك والقوى من الاستعداد الاول بل لابد فى ظهور اثرها وسيرها فيما اعدت له من الغذاء الذي يوافقها والتربية التي تلائمها . فالوراثة والتربية هما الاصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الطفل ذكراً كان او انثى وليس هناك شيء وراء ذلك

فبالوراثة يكسب الطفل استعداداً لكل ميل كان عليه الوالدان صالحاً كان او فاسداً ويرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو فى بطن امه . فصفات الطفل مرتبطة بما كان عليه اسلافه من جهة الام ومن جهة الاب . وبالتربية يمتلئ ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس وبأثرها فى نفسه الما كان او لذة .

وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول الى ادارة مربيه . فهو الذي يريه ويسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم . وهو الذي يعرض على وجدانه من العواطف ما يراه لائقاً به . فان لم يرد عليه من صور المحسوسات الا ما هو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة . اولم يشعر من العواطف الا بما يظهر أثره في أقرب الاشياء من لذته الجسمانية كان سريع الاندفاع مع اول خاطر يبدو له كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون . وان كانت معلوماته كثيرة تحتوي على صور الاشياء وصور مايحدث عنها لاول التصور وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك وكان وجدانه رقيقاً لطيفاً كان الناشئ كثير التأمل شديد التبصر بطيء الاندفاع مع اول انفعال يتأثر به من الحس والشعور . فينشأ وبيده ميزان يزن به اعماله ويقدر به حركاته ويشاهد فيه وهو فى صباه الميل الى النافع والنفرة من الضار

لا نقول ان الطفل يكون في ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد . ولكنها اوائل وجرائيم من الكمال العقلي والادبي تصل بالتنمية والتربية الى تلك الغايات الشريفة التي يسعى اليها كل من عرف معنى الانسانية وذاق لذة الفضيلة . فسلامة

العقل لاتتم الا بحسن الوراثة وحسن التربية وهذا ما جعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد فى الاخلاق الى مرض في المخ اوفى الاعصاب موروث اومكتسب. وان شوهد ان الولد لايشابه ابويه في بعض الاحوال فذلك انما لان قانون الوراثة قد يرجعه الى حد اسلافه القريبين

متى حسنت التربية على الوجه الذي ذكرناه ضعف الاستعداد الذي كسبه الطفل من والديه ان كان رديئاً وتأصل فيه استعداد جديد يرثه عنه من يتولد منه ويقوى فيه ذلك الاستعداد ان كان حسناً فيبلغ غاية ما يرجى لانسان فاضل من بنين فاضلين ويظهر أثر ذلك ايضاً فى اولاده وأعقابه ان استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذي صار به هذا الوالد رجلا صالحاً . اما ان كانت التربية فاسدة وكل ما يرد على الطفل انما يثير فيه أهواء باطلة فالاستعداد الخبيث يقوى والاستعداد الطيب يضمحل ويموت ويجني على اولاده تلك الجناية التي جناها عليه والداه

قال الغزالي في التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهيت ان اوردها هنا وهى : الصبي امانة عند والديه . وقلبه الطاهر

جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش . ومائل الى كل ما يمال اليه به . فان عوّد الخير علمه وعلّمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب . وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه الوالي له . وقد قال الله عز وجل : « يا أيُّهَا الذينَ آمنوا قوا انفسكم وأهليكم نارًا »

والتربية تنحصر فى أمر واحد هو تعويد الطفل على حسن الفعل وتحلية نفسه بجميل الخصال . والوسيلة الى ذلك واحدة هي ان يشاهد الطفل آثار هذه الاخلاق حوله . لان التقليد فى غريزة الطفل يكتسب به كل ما تلزم معرفته . فان كانت الأم جاهلة تركت ولدها لنفسه يفعل ما يزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة . ويرى من الاعمال ما لا ينطبق على محاسن الأدب فيتخلق بالاخلاق الفاسدة ويعتاد العوائد الفاسدة

ويرى الاسوة السيئة فى بيته وفي الخارج وكلما تقدم في السن رسخت فيه هذه الاخلاق وكبرت معه بكبره . فاذا

وصل الى سن الرجولية رأى نفسه أو رآه الناس رجلا سيئ التربية ولا سبيل له بعد ذلك الى اصلاح نفسه مهما كانت ارادته ومعارفه وعقله . ويندر جداً ان يوجد شخص يبتدئ بعد بلوغه سن الرجولية فى اصلاح ما فسد من ملكاته ثم ينجح في ذلك . اللهم الا الى حد محدود

ومن المعلوم ان الطفل لا يعيش من طفوليته الى سن التمييز الا بين النساء . فهو دائماً محاط بأمه واخواته وعماته وخالاته وخادماتهن وصواحباتهن ويرى أباه في أوقات قليلة . فاذا كان هذا الوسط الذي ينشأ فيه طيباً كانت تربيته طيبة وان كان سيئاً ساءت تربيته . والأم الجاهلة ليس في استطاعتها ان تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات الجميلة لانها لا تعرفها . وغاية ما تستطيع هو انها تدعه يلتقط الخلال الرديئة بما يعرض له ان لم تبذر بيدها حبوبها في نفسه وتغرس فيها الملكات السيئة

أليس من جهل الأم بقوانين الصحة ان تهمل ولدها من النظافة فيعلوه الوسخ وتتركه منتشراً في الطرق والأزقة يتمرغ في الاتربة كما تتمرغ صغار الحيوانات ؟ أليس من جهلها ان تدعه كسلان يفر من العمل ويضيع وقته الذي هو رأس ما له

مضطجعاً أو نائماً أو لاهياً مع ان سن الطفولية لا يعرف الكسل وهو سن النشاط والعمل والحركة ؛ أليس من أثر جهلها اننا جميعاً مصابون بشلل في أعصابنا حتى صرنا لا نتأثر من شيء مهما بلغ في الحسن والقبح . فاذا رأينا عملا جميلا مدحناه من طرف اللسان . واذا شاهدنا فعلا قبيحاً استهجناه بهز الرؤوس وظاهر من القول بدون ان نشعر بانبعاث باطني يقهرنا على الاندفاع الى الاول ولا على الابتعاد عن الثاني ؛ أليس من جهلها ان تسلك في تأديب ولدها طريق الاخافة بالجن والعفاريت . وان تأخذ من وسائل صيانته ووقايته من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفي زوايا الاضرحة وغير ذلك مما لا يبالي به الجاهلون بأصول الدين وفضائل الاعمال وله من الاثر السيئ في أنفس الناشئين بل وفي أرواح الرجال ما يجر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟

قد صار من المقرر عندنا ان الامهات لا يفلحن في تربية الاولاد حتى صار من المثل في الحطة وردءة السير ان يقال فلان تربية امرأة — على اننا نرى ان تربية المرأة في البلاد الغربية تفوق تربية الرجل . وان أحسن الناس تربية هم من

ساعدهم الدهر في ان تتولى تربيتهم امرأة . وليس هذا بغريب فان المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هى بها أقوى استعداداً للنجاح فى التربية . ذلك انها أصبر من الرجل فيما تحب . وانها ألطف منه فى المعاملة وأرق منه في العواطف والاحساسات . ويفتخر الغربيون بتأثير النساء في أحوالهم حتى بعد بلوغ رشدهم . فقد قرأت فى أحد كتب رونان الفيلسوف الشهير ما محصله : « أن أجمل ما وضعه في مؤلفاته كان الهاماً من أخته » وقال الفونس دوديه الكاتب المجيد في بعض ما كتبه : «ان كنت استحق فخراً فلامرأتي نصفه» وأمثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على أحوال الاوروباويين . وكلها تدل على ان تربية المرأة أمر لا يستغنى عنه . وان القسم الاعظم منها منوط بالمرأة

وقد نجد في هدى نبينا صلى الله عليه وسلم ما يشير الى ذلك . بل كان يجب ان يعد أصلا من الاصول التي نركن اليها في بناء أمورنا الملية حيث قال في شأن عائشة رضى الله عنها: « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » : وعائشة امرأة لم تؤيد بوحي ولا بمعجزة وانما سمعت فوعت وعلمت فتعلمت

أود ان كل مصري يرى ان مسئلة التربية عندنا هى أم سائر المسائل وان كل مسئلة غيرها مهما كانت أهميتها داخلة فيها

عرف المصريون بعوائد واخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها . تلك العوائد والاخلاق ليست معروفة فى الدين ولا هي موافقة لما يستحسنه العقلاء حتى من المصريين انفسهم وقل ما يشاهد مثلها عند غيرهم

وقد آن الوقت على ما أظن لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية . تربية تنشئ رجالاً أولى علم وأصالة رأي يجمعون بين المعارف والاخلاق والعلم والعمل . تربية تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الاجنبي في كل يوم وبكل لسان وكلها ترجع مهما اختلفت فى الاسم الى سبب واحد وهو النقص في تربية نفوسنا . وقد اتفق جميع اهل النظر في مصر على ان التربية هى الدواء الوحيد لذلك الداء . وانتشر هذا الرأي الصائب فى الكتب والجرائد واحاديث المجالس حتى صح ان يقال انه اصبح رأياً عاماً . وتولد عن ذلك شعور بان مستقبل الامة تابع لتربيتها

ولكن ارى هم الناس موجهة الى التعليم ولا ارى احداً يلتفت الى تربية النفوس . وارى ان الحرص على التعليم منحصر في تعليم الذكور . مع ان تهذيب الاخلاق مقدم على التعليم وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل في التعليم فذلك غير ضروري . وانما اطلب الآن ولا اتردد في الطلب ان توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الاقل . وان يعتنى بتعليمهن الى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين

أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فاراه غير كاف . لانهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة اجنبية وشيئاً من الخياطة والتطريز والموسيقى ولا يتعلمن من العلوم مايستفدن منه فائدة يلتفت اليها . وربما زادتهن تلك المعارف غروراً بانفسهن فتظن الواحدة منهن انها متى عرفت ان تقول نهارك سعيد باللغة الفرنساوية فقد فاقت اترابها وارتفع شأنها وسما عقلها . ولا تتنازل بعد ذلك لان تشتغل بعمل من الاعمال المنزلية . فتقضي حياتها في تلاوة اقاصيص وحكايات قل ما تفيد الاَّ في اثارة صور من الخيالات تطوف بها وتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح فيه

طرفها وهي شاخصة الى دخان السجارة التى تقبض عليها

اكثر ما تعرفه المرأة التي يقال الآن انها متعلمة هو القراءة والكتابة وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى اليها . ومابقي من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة فى ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شئ . اين هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل ويتقوي بها على مطاردة الوهم ! — لا شئ ينفع الانسان مثل اكتسابه مايسمي عقلا عملياً . اريد بذلك ما يقابل التخيل الذي يعيش به صاحبه فى اوهام وهواجس لا ترجع الى حق ثابت. فان كل مصائب الانسان تأتي له من باب واحد وهو الخيال: كلما تجرد الانسان عن الاوهام والخيالات قرب من السعادة ويبعد عنها بقدر ما يبعد عن الحقيقة

الحقيقة هى ضالة الانسان في العالم ويجب عليه ان يسعى وراءها بلا قصور ولا تعب . الحقيقة هى الكنز الذي أودع الله فيه كل آمال الانسان لا يجدها الا من رغب فيها ومال عن سواها . الحقيقة هى مشرق السعادة لانها الوسيلة وحدها لوصول الانسان الى كمال العقل والنفس . والنساء مثل الرجال

في الحاجة الى معرفة الحقيقة والى اكتساب عقل يحكم على نفوسهن ويرشدهن في الحياة الى الاعمال الطيبة النافعة

أنظر الى الطفل تجده يشتهي وينفر ويحب ويكره ويفرح ويحزن ويضحك ويبكي ويسكن ويغضب وهو في كل ذلك انما ينفعل بحس وينبعث بوهم وينقاد الى خيال . واذا أراد شيئاً فمنع عنه لم يستعمل للوصول الى غرضه الا شيئاً من الغش والمكر والكذب . لِمَ ذلك ؟ لان عقله ضعيف ومعارفه قليلة . ولم تصل قواه العقلية الى درجة تتمكن فيها من القياس والموازنة بين الاعمال والرغائب والآلام حتى تحمله على الصبر أحياناً وطلب المرغوب من أبوابه ووسائله الصحيحة أحياناً أخرى : والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل فيما ذكرنا

سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا انهن أعوان ابليس . فلا تسمع الا ذماً لخصالهن وتنقيصاً لعقلهن وتحذيراً من مكرهن . وانا لا أبرئ النساء الآن من هذه الصفات . ولكن أرى ان التبعة ليست عليهن بل على الرجال

هل صنعنا شيئاً لتحسين حال المرأة ؟ هل قمنا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب أخلاقها وتثقيف

عقلها ؟ أيجوز ان نترك نساءنا في حالة لا تمتاز عن حالة الانعام؟ أيصح أن يعيش النصف من أمتنا في ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئاً مما يمر حولهن كما في الكتاب صم بكم عمي فهم لا يعقلون ! أليس بينهن أمهاتنا وبناتنا واخواتنا وزوجاتنا . وهن زينة حياتنا الدنيا والجزؤ الذي لا يمكن فصله منا دمنا من دمهن ولحمنا من لحمهن ؟ أليس الرجال من النساء، والنساء من الرجال وهن نحن ونحن هن ؟ أيتم كمال الرجل اذا كانت المرأة ناقصة ؟ وهل يسعد الرجال الا بالنساء ؟

نحن حرمنا أنفسنا من أكبر لذة في الدنيا وهي التمتع بمحبة ذوي القربى من النساء

كل منا يذوق حلاوة الساعات التي تمر به بدون ان يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط أنفسهما بعضها ببعض حتى يذهل كل عن أيهما يتكلم وأيهما يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلا شك اذا وجد هذا التوافق بين رجل وأمه أو أخته أو زوجته . ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ولهذا فانا نشفق عليهن ونحنُّ اليهن ونعذرهن . ولكن لا تكمل

محبتنا لهن لان الحب التام هو ذلك التوافق . وهو معدوم

والانسان محتاج الى أن يكون محباً وان يكون محبوباً

ومن فضل الله عليه ان وضع بجانبه أمهات وزوجات وغرس في قلوبهن محبته وفي قلبه محبتهن وهذه أكبر نعمة منَّ الله علينا بها لان هذه المحبة النقية الطاهرة الكاملة اذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا في سجن الحياة وهونت علينا الآلام والمصائب التي لولا هذه التسلية لافضت في بعض الاوقات بأقوى رجل منا الى اليأس . فعدم تقديرها قدرها وانصراف العناية عن تنميتها وتكميلها كفرانٌ بنعم الله وتقصيرٌ في شكره

بقي علينا ان ندفع اعتراضاً لا يمكننا السكوت عنه لانه في الحقيقة هو المانع الوحيد الذي اتفقت أغلب العقول على وضعه حاجزاً يحول بين المرأة والتعليم : وهو الخوف من ان التعليم يفسد أخلاقها

رسخ في اذهان الرجال ان تعليم المرأة وعفتها لا يجتمعان. وقال الاقدمون في ذلك اقوالا طويلة وحكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش

والحيلة . فلو تعلمت لم يزدها التعليم الا براعة فى الاحتيال والخدعة واسترسالا مع الشهوة . فحذونا مثالهم واعتقدنا ان التعليم يزيد تفننها في المكر ويعطيها سلاحا جديداً تتقوى به طبيعتها الخبيثة على ارتكاب المفاسد

اما ان المرأة الآن ناقصة العقل شديدة الحيلة فهذا مما لا يختلف فيه اثنان . وقد بينا ان هذه الحالة هى اثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما اجيالا طويلة . وانه متى زال السبب فلا شك ان المسبب يتبعه . واما كون التعليم يفسد اخلاقها فهذا ننكره ونشدد النكير عليه فان التعليم — خصوصاً اذا كان مصحوبا بتهذيب الاخلاق — يرفع المرأة ويرد اليها مرتبتها واعتبارها ويكمل عقلها ويسمح لها ان تفتكر وتتأمل وتتبصر في اعمالها . وان وقع ان امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية فقد وقع ان الوفا من النساء الجاهلات دنسن عروضهن وكان الرسول بينهن وبين رفيقهن خادم او خادمة او دلالة او جارة عجوز

والحقيقة ان طهارة القلب في الغرائز والطباع . فان كانت

المرأة صالحة زادها علمها صلاحا وتقوى . وان كانت فاجرة لم يزدها العلم فجوراً . وهكذا الحال في الرجال . وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لا يمنع من تعاطيه . فقد قال الله في شأن كتابه : « يُضل به كثيراً ويهدي به كثيراً . وما يُضل به الا الفاسقين »

فاثر التعليم لا يمكن ان يكون ضرراً محضاً . ولا يمكن ان يكون منشئاً حقيقياً لضرر . والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الامور اكثر مما تخشاه الجاهلة ولا تقدم بسهولة على مايضر بحسن سمعتها . بخلاف الجاهلة فان من اخلاقها الطيش والخفة . واذكر ملاحظة واحدة تؤيد ما قدمته وهو ان نساء الافرنج على العموم مهما كان حالهن في الباطن يحافظن على الظواهر فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يحب بعضهما بعضاً اياماً واشهراً ولا يكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافياً بينهما وتراهن في الطريق سائرات مرتديات بجلابيب الجد والسكينة والوقار يغضضن ابصارهن عن الرجال وان نظرن اليهم فمن طرف خفي . اما نساؤنا العفيفات فيغلب فيهن ان يكون باطنهن خيراً من ظاهرهن ومتى رأت الواحدة منهن رجلا نظرت اليه

وتأملته والتفتت نحوه ولوت عنقها اليه ولا شعور لها بأن مثل هذه الحركات التي تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها . أما الفريق الآخر من النساء في بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا تسل عما يصدر منهن في الطرق والمجتمعات العامة من الامور المخلة بالادب التي يستحي القلم عن ان يجرى برسمها : هذا الفريق من الاجانب يصعب تمييزه عن الحرائر الا ببعض امور يعرفها أهل الخلاعة

ثم ان البطالة التي ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كانها من لوازم حياتهن هي ام الرذائل . ان كان نساؤنا لا يعملن شيئاً في المنازل ولا يحترفن بصنعة ولا يعرفن فناً ولا يشتغلن بعلم ولا يقرأن كتاباً ولا يعبدن الله فبماذا يشتغلن حينئذ ؟ اقول لك وأنت تعلم مثلي ان ما يشغل امرأة الغني والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع الى ما لا نهاية له ويتشكل في كل آن بشكل جديد وهو ينبوع رضاها او سخطها على حسب الاحوال . ذلك الامر هو علاقتها مع زوجها . فتارة تتخيل انه يكرهها . وتارة تظن انه يحبها . واحيانا تقارنه بازواج جاراتها فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسباً

او خاسراً واحياناً تجرب ميله لتعلم هل تغير او هو باق. واحياناً تدبر طريقة لتغيير قلبه على ذوى قرابته لتنزع منه محبتهم ان كان ودوداً لهم . ولا تغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمات وتراقب لحظاته عند دخول الزائرات وتجعله دائماً موضوع الشك . ومن وسائل الاحتياط ان لا تقبل الخادمة الا اذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر وبشاعة الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمن ميل زوجها اليها . ولا تستريح من هذا الشاغل الا اذا افرغته في اذن اخرى من امثالها . فاذا فرغت من تصويره في العبارات رجعت الى تمثيله في الخيالات وهكذا. ولهذا ترى اذا اجتمعت مع جاراتها وصواحباتها تصاعدت مع دخان السجاير وبخار القهوة زفراتها وارتفع صوتها فتقص ما بينها وبين زوجها واقارب زوجها واصحاب زوجها وحزنها وفرحها وهمها وسرورها وتفرغ كل ما في صدرها حتى لا يبقى سر من اسرارها — ولو كان متعلقاً بالفراش — الا وقد اخبرت به

هذا اذا كانت المرأة محبة لزوجها . أما اذا كانت لا تميل لزوجها أو كانت غير متزوجة فأكرر سؤالي بماذا تشتغل

حينئذ : أما الاولى فانها تفتكر في طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه . أما الثانية فاعظم همها ان تشتغل كذلك بالبحث عن زوج ايًا كان ولا تضيع وقتها في حسن انتقاء الرجل الذي يصح ان يكون لها زوجا فانها انما تطلب رجلا . ومن البديهي ان المرأة التي يكون هذا حالها ان كانت فاسدة الاخلاق ووجدت فرصة لا تتأخر عن انتهازها ولا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد ان تقدم له افضل شيء لديها وهو نفسها

وعلى خلاف ذلك يكون امر النساء المتعلمات . اذا جرى القدر عليهن بامر مما لا يحل لهن لم يكن ذلك الا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام باحوال المحبوب وشمائله وصفاته فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت وهي تحاذر ان تضع ثقتها في شخص لا يكون اهلا لها ولا تسلم نفسها الا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الامزجة . وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف وتخفي ما في نفسها عن اخص الناس بها

والمعول في كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الاخلاق

التي نشأت عليها المرأة في تربيتها الابتدائية . فان اعتادت على ان تشغل اوقاتها بالمطالعة ومزاولة الاعمال المنزلية بين اهل وعشيرة رأت فيهم اسوة الجد والاستقامة وغاب من بينهم كل ما يؤثر في مشاعرها اثراً غير صالح او يهيج حسها الى امر غير لائق وتعودت على ان تقيم من عقلها حاكماً على قواها الحسية كان من النادر ان تحيد عن الطريق المستقيم وان تلقى بنفسها في غمرات الشهوات التي لا تسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم

وبالجملة فانا نرى ان تربية العقل والاخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل . بل هي الوسيلة العظمى لان يكون في الامة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . وأرى ان من يعتمد على جهل امرأته مثله كمثل اعمى يقود اعمى مصيرهما ان يقعا في اول حفرة تصادفهما في الطريق